محاضرة فضيلة الإمام الأكبر

الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى

شيخ الأزهر

بعنوان:

﴿المنهج القرآني في بناء المجتمع﴾

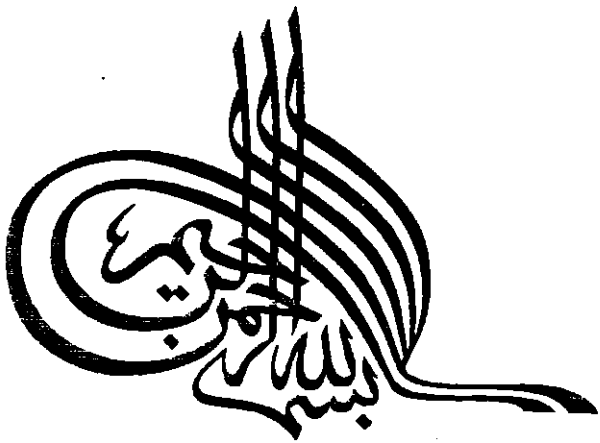
بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم الأستاذ الدكتور/ محمد عبد الحليم عمر

مدير المركز

بسم اللّه الرحمن الرحيم، الحمد للّه رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .. أما بعد

هذا هو الكتاب الخامس الذى يصدره المركز في سلسلة محاضرات كبار العلماء والخبراء والذى يحتوى على المحاضرة القيمة التى ألقاها فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر بالمركز مساء يوم الأثنين ١٩٩٨/٩/٢٨م بعنوان: (المنهج القرآنى في بناء المجتمع) ولقد شرفنا في هذا اللقاء العلمى بحضور معالى وزير الأوقاف الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق، وفضيلة الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر

وفي تصديرنا لهذا الكتاب: نذكر أن المجتمع يتكون من العديد من الأفراد، وأن هؤلاء الأفراد يرتبطون بوحدات تنظيمية تبدأ من الأسرة الصغيرة ثم الأهل والأقارب (القبيلة) ثم ا لجوار في الحى والقرية والمدينة، والأخوة في الوطن والعقيدة ثم الأخوة الإنسانية بشكل عام، وأنه في كل الأشكال التنظيمية السابقة تنشأ علاقات متعددة في شتى المجالات كمتطلب ضرورى لسير الحياة.

ولكى يوجد المجتمع الصالح الذى تسوده المحبة ويحقق التقدم في الحياة يجب بداية الاهتمام باللبنة الأولى فيه وهى الفرد، ثم تنظيم العلاقات المختلفة التى تنشأ بين أفراد المجتمع بشكل سليم يقوم على الايجابية والعدالة.

والقرآن الكريم دستور الإسلام اشتمل على العديد من الآيات والمواقف التى تعمل على تكوين الفرد الصالح تنظيم العلاقات الاجتماعية بين وحدات المجتمع المختلفة في شتى المجالات كما يتضح من السرد الموجز التالى:

– فعلى مستوى تكوين الفرد الصالح فإنه كما يقول الإمام أبو حامد الغزالى في كتابه (جواهر القرآن) إن عدد الآيات التى تتناول السلوك الإنسانى تعادل نحو ربع آيات القرآن الكريم مما يدل على مدى عناية الإسلام بتكوين الفرد الصالح.

– وعلى مستوى التكوين الاجتماعى الأول وهو الأسرة نجد أن أساس العلاقة كما صورها القرآن الكريم هو المودة والمحبة والسكينة. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1].

– ثم تتوالى الآيات لتوجه إلى حسن العلاقة بين الأباء والأبناء منها قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[2].

---

(١) سورة الروم : الآية ٢١.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٣.

وقوله عز وجل ﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾[1] وأيضاً قوله عز من قائل ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[2].

- أما على مستوى التكوين الاجتماعى الثانى وهو الأسرة والأهل والجيران فيشر التوجيه القرآنى أيضاً إلى الإحسان كأساس لهذه العلاقات الاجتماعية، فيقول سبحانه ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[3].

وفي المستوى الثالث للتكوين الاجتماعى وهو الأخوة في العقيدة والوطن يقول سبحانه ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٣٣

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٥١.

(٣) سورة النساء : الآية ٣٦.

وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[1] والمطلوب في وحدة الأمة الاعتصام والتعاضد القائم على المحبة ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾[2]، وعدم التنازع ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[3].

- وأخيراً على المستوى الإنساني، فالأساس في العلاقات هنا التعارف القائم على احترام كل مجتمع لخصائص المجتمع الآخر والعيش في الدنيا بسلام، حيث يقول سبحانه مخاطباً جميع الناس وليس المسلمين وحدهم ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[4].

هذا إلى جانب الآيات العديدة التي تدعوا إلى الرحمة والتكافل بين الناس جميعاً.

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٩٢.

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٠٣.

(٣) سورة الأنفال : الآية ٤٦.

(٤) سورة الحجرات : الآية ١٣.

ولم يقتصر الأمر على وضع القرآن للأسس العامة للعلاقات داخل التكوينات الاجتماعية المختلفة وإنما تعداه إلى تنظيم هذه العلاقات في شتى المجالات، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

وهكذا نجد أن آيات القرآن حافلة بكل ما يؤدى إلى بناء وتكوين المجتمع الصالح. والتى فسرها وشرحها علماء المسلمين على اختلاف تخصصاتهم، ومن أبرز الأمثلة على ذلك محاضرة اليوم التى طاف فيها فضيلة الإمام الأكبر في سورة واحدة من سور القرآن وهى سورة النساء وبين ما تشتمل عليه هذه السورة من أسس لبناء المجتمع الصالح في عرض سلس وبيان واضح وتمكُّن علمى وهذا ما كان متوقعا من فضيلته كإمام للمسلمين، ومن تأهيله العلمى الذى بدأ بحفظ القرآن الكريم ودراسته للعلوم الدينية في معهد الاسكندرية الدينى والتحاقه بكلية أصول الدين وتخصصه في القرآن وعلومه بحصول فضيلته على درجتى الماجستير عام ١٩٥٩م والدكتوراه عام ١٩٦٦م.

واستكمال مشواره العلمى مع القرآن باصدار موسوعته الشهيرة "التفسير الوسيط للقرآن الكريم" في خمسة عشر مجلداً تحتوى على أكثر من سبعة آلاف صفحة والتى طبعت عدة طبعات.

ولا يسعنا في نهاية هذا التصدير إلا أن ندعو اللّه سبحانه وتعالى لفضيلة الإمام الأكبر بالصحة والعافية وأن يجزيه خير الجزاء لما قدمه ويقدمه للإسلام والمسلمين من علم نافع وتوجيه سديد وإرشاد مستمر في يسر وسماحه.

واللّه ولى التوفيق

مدير المركز

أ.د. محمد عبد الحليم عمر

محاضرة (المنهج القرآن في بناء المجتمع)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. أما بعد

- ١ -

فالمنهج القرآني في بناء المجتمع يقوم على الوسائل أو على الأسباب والمسببات فمن قدم الإيمان والعمل الصالح كان نتيجته النجاح والظفر بالمأمول ومن قدم التقصير والعمل السئ كانت نتيجته الفشل والخسران ولذا نجد القرآن الكريم يقرن في كثير من آياته بين الإيمان والعمل الصالح ومن ذلك قوله تعالى

١- ﴿وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة آية (٢٥).

٢- وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[١].

٣- وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[٢].

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى قرنت بين الإيمان والعمل الصالح فأى مجتمع يبنى حياته على الأعمال الصالحة وعلى الأخلاق الكريمة وعلى مباشرة الأسباب التى شرعها الله تعالى للنجاح لا بد من رقيه وتقدمه والعكس صحيح.

- ٢ -

وسورة النساء وهى من السور المدنية عندما نقرؤها بتدبر وإمعان نراها قد أقامت المجتمع الإسلامى على أسمى قواعد التنظيم الداخلى والخارجى فنراها في مطلعها تحض الناس على تقوى الله والخشية منه قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا

---

(١) سورة الكهف آية (١٠٧).

(٢) سورة الكهف آية (٣٠).

النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1].

ومن وجوه المناسبة بين هذه السورة وبين سورة آل عمران التى قبلها أن سورة آل عمران اختتمت بالأمر بالتقوى في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2] وسورة النساء افتتحت بالأمر بالتقوى قال الآلوسى (وذلك من آكد وجوه المناسبة في ترتيب السور وهو نوع من أنواع البديع يسمى في الشعر تشابه الأطراف وقوم يسمونه بالتسبيغ ومن أمعن نظره وجد كثيرا مما ذكر في هذه السورة مفصلاً لما ذكر فيما قبلها فحينئذ يظهر مزيد الارتباط وغاية الاحتباك)[3] كما أن السورة في مطلعها

---

(١) سورة النساء آية رقم (١).

(٢) سورة آل عمران آية رقم (٢٠٠).

(٣) تفسير الألوسى جـ٤ ص١٧٨.

تبين الارتباط الإنسانى الجامع الـذى تلتقـى عنـده البشـرية جميعاً وهو أن الناس جميعاً ينتهون إلى أصل واحد وإذا كـان الناس جميعاً ينتهون إلى أصل واحد فإن هذا الاتحاد يقتضـى منهـم أن يكونـوا مـتراحمين متعـاطفين ومـن أبـرز مظـاهر التراحم الأخذ بيد الضعفاء ومعاونتهم في كل مـا يحتـاجون إليه.

- ٣ -

لذا نجد السورة الكريمة بعد أن تفتتح بأمر الناس بتقوى الله عز وجل تتبع ذلك بالأمر بالاحسان إلى اليتامى- الذين هم أوضح الضعفاء مظهراً- في خمس آيات في الربع الأول منها وهذه الآيات هى قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فانكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ

(١) سورة النساء آية رقم (٢).

خِفْتُمْ أَلا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلا تَعُولُوا﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلا مَعْرُوفًا﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[4].

---

(١) سورة النساء آية رقم (٣).

(٢) سورة النساء آية رقم (٦).

(٣) سورة النساء آية رقم (٨).

(٤) سورة النساء آية رقم (١٠).

- ٤ -

ولم تكتف السورة في أولها بالحض على الإحسان إلى اليتامى بل حضت أيضاً على إعطاء النساء حقوقهن كاملة والإحسان إليهم في قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾[1].

- ٥ -

ثم تراها بعد ذلك في الربع الثانى منها تتحدث عن التوزيع المالى للأسرة عندما يموت واحد منها وتضع لهذا التوزيع أحكم الأسس وأعدلها وأضبطها وتبين أن هذا التوزيع حد من حدود الله التى يجب التزامها وعدم مخالفتها.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ

---

(١) سورة النساء آية رقم (٧).

الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[1].

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ﴾ هذه الآية الكريمة والتى بعدها والآية التى هى خاتمة هذه السورة هى آيات علم الفرائض وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك.

وقد ورد الترغيب في تعلم الفرائض فعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائض وعلموه الناس فإنه نصف العلم وهو أول شيء ينسى وهو أول شيء ينزع من أمتى».

وقد جعل الله – سبحانه– نصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى لأن التكليفات المالية على الأنثى تقل كثيرا عن التكليفات المالية على الذكر إذا الرجل مكلف بالنفقة على نفسه وعلى أولاده وعلى زوجته وعلى كل من يعولهم

---

(١) سورة النساء آية رقم (١٣).

بينما المرأة نصيبها من الميراث لها خاصة لا يشاركها فيه مشارك.

وبهذا يتبين أن الإسلام قد أكرم المرأة غاية الإكرام حيث أعطاها هذا النصيب الخاص بها من الميراث بعد أن كانت في الجاهلية لا ترث شيئاً.

وعبر الله تعالى بالذكر والأنثى دون الرجال والنساء للتنصيص على استواء الكبار والصغار من الفريقين في الاستحقاق من غير دخل للبلوغ والكبر في ذلك أصلاً كما هو زعم أهل الجاهلية حيث كانوا لا يورثون الأطفال ولا النساء.

- ٦ -

ثم تسوق السورة الكريمة آيتين كريمتين للتوبة التي يقبلها الله وللتوبة التي لا يقبلها الله تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ

أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].

والتوبة هى الرجوع إلى الله- تعالى- وإلى تعاليم دينه بعد التقصير فيها مع الندم على هذا التقصير والعزم على عدم العودة إليه والمراد بها قبولها من العبد والمراد من الجهالة في قوله ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ الجهل والسفه بارتكاب ما لا يليق بالعاقل لا عدم العلم لأن من لا يعلم لا يحتاج إلى التوبة.

قال مجاهد: كل من عصى الله عمداً أو خطأ فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته.

وقال قتادة: اجتمع أصحاب النبى ﷺ فرأوا أن كل شئ عصى الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيره[2].

ووجه تسمية العاصى جاهلا- وإن عصى عن علم- أنه لو استعمل ما معه من العلم بالثواب والعقاب لما عصى ربه

---

(١) سورة النساء آية (١٧، ١٨).

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٦٣.

فلما لم يستعمل هذا العلم صار كأنه لا علم له فسمى العناصى جاهلا لذلك سواء ارتكب المعصية مع العلم بكونها معصية أم لا والعاقل من الناس هو الذى يبادر بالتوبة الصادقة عقب المعصية بلا تراخ لأنه لا يدرى متى يفاجئه الموت ولأن تأخيرها يؤدى إلى قسوة القلب وضعف النفس واستسلامها للأهواء والشهوات.

— ٧ —

ثم وجه القرآن نداء عاما إلى المؤمنين نهاهم فيه عما كان شائعاً في الجاهلية من ظلم للنساء وإهدار لكرامتهن وأمرهم بحسن معاشرتهن وعدم أخذ شئ من حقوقهم فقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۞ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ۞ وَكَيْفَ

تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾[1].

وقد خاطب الله تعالى المؤمنين بصفة الإيمان تحريكا لحرارة العقيدة في قلوبهم وتحريضا لهم على الاستجابة إلى ما يقتضيه الإيمان من طاعة لشريعة الله- تعالى- والمعنى يا أيها الذين آمنوا وصدقوا بالحق الذى جاءهم من عند الله لا يحل لكم أن تأخذوا نساء موتاكم بطريق الإرث وهن كارهات لذلك أو مكرهات عليه لأن هذا الفعل من أفعال الجاهلية التى حرمها الإسلام لما فيها من ظلم للمرأة وإهانة لكرامتها ثم أمر الله تعالى- الرجال- وخصوصاً الأزواج- بحسن معاشرة النساء فقال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى طيبوا أقوالكم لهن وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها فافعل أنت مثله كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[2] وقال

---

(١) سورة النساء آية ١٩، ٢٠، ٢١.

(٢) سورة البقرة آية رقم (٢٢٨).

رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» وكان من أخلاقه صلى الله عليه وسلم أنه جميل العشرة دائم البشر يداعب أهله ويتلطف بهم ويضاحك نساءه وكان يجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلا قبل ان ينام يؤانسهن بذلك صلى الله عليه وسلم وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1].

هذا وللإمام الغزالي- كلام حسن في كتابه الاحياء عند حديثه عن آداب معاشرة النساء فقد قال ما ملخصه: واعلم أنه ليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها والحلم عن طيشها وغضبها، اقتداء برسول الله ﷺ فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام ومن

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٦٦ والآية رقم (٢١) من سورة الأحزاب

آداب المعاشرة- أيضاً- أن يزيد على احتمال الأذى منها بالمداعبة والمزح والملاعبة فهي التي تطيب قلوب النساء وقد كان صلى الله عليه وسلم يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال.

وقال عمر- ﷺ-: ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي فإذا التمسوا ما عنده وجدوه رجلا. وكان ابن عباس ﷺ يقول: (إني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي)[1].

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة ببيان أنه لا يصح للرجال أن يسترسلوا في كراهية النساء إن عرضت لهم أسباب الكراهية بل عليهم أن يغلبوا النظر إلى المحاسن ويتغاضوا عن المكاره فقال تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[2].

فالآية الكريمة ترشد إلى حكم عظيمة منها: أن على العاقل أن ينظر إلى الحياة الزوجية من جميع نواحيها لا من

---

(١) من كتاب (احياء علوم الدين) للغزالي جـ٢ ص٣٩.

(٢) سورة النساء: الآية ١٩.

ناحية واحدة منها وهى ناحية البغض والحب وأن ينظر في العلاقة التى بينه وبين زوجه بعين العقل والمصلحة المشتركة لا بعين الهوى وأن يحكم دينه وضميره قبل أن يحكم عاطفته ووجدانه فربما كرهت النفس ما هو أصلح في الدين وأحمد وأدنى إلى الخير وأصبت ما هو ضد ذلك وربما يكون الشئ الذى كرهته اليوم ولكنها لم تسترسل في كراهيته سيجعل اللّه فيه خيرا كثيرا في المستقبل قال- تعالى- ﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(١).

قال القرطبى: روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبى هريرة قال: قال رسول ا لله ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضى منها آخر» أى لا يبغضها بغضا كليا يحمله على فراقها أى لا ينبغى له ذلك بل يغفر سيئتها

---

(١) سورة البقرة آية رقم (٢١٦).

لحسنتها ويتغاضى عما يكره لما يحب- والفرك: للبغض الكلى الذى تنسى معه كل المحاسن[1].

هذا ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات الكريمة ما يأتى:

١- تكريم الإسلام للمرأة

فقد كانت في الجاهلية مهضومة الحق يعتدى عليها بأنواع من الاعتداء فرفعها الله تعالى- بما شرعه من تعاليم إسلامية من تلك الهوة التى كانت فيها وقرر لها حقوقها ونهى عن الاعتداء عليها.

٢- جواز الإصداق بالمال الكثير

لأن الله تعالى قال ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ والقنطار: المال الكثير الذى هو أقصى ما يتصور من مهور.

إلا أن الفضل عدم المغالاة في ذلك مع مراعاة أموال الناس من حيث الغنى والفقر وغيرهما.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص٩٨.

ولقد ورد ما يفيد الندب إلى التيسير في المهور فقد أخرج أبو داود والحاكم من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصداق أيسره»[1].

٣- أن الرجل: إذا أراد فراق امرأته فلا يحل له أن يأخذ منها شيئا ما دام الفراق بسببه ومن جانبه كما أنه لا ينبغي له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاه إياها إذا كان الفراق بسببها ومن جانبها[2].

- ٨ -

وبعد أن نهى- سبحانه- عن ظلم المرأة في حال الزوجية وعن ظلمها بعد وفاة زوجها وعن ظلمها في حال فراقها وأمر بمعاشرتها بالمعروف بعد كل ذلك بين - سبحانه- من لا يحل الزواج بهن من النساء ومن يحل الزواج بهن حتى تبقى للأسرة قوتها ومودتها فقال - تعالى-: ﴿وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلا مَا قَدْ

---

(١) أخرجه أبو داود جـ ٢ ص٢٣١.

(٢) تفسير القرطبي جـ٥ ص١٠٢.

سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلا ۞ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنْ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ اللاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمْ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۞ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ النِّسَاءِ إِلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞[1].

---

(١) سورة النساء آية رقم ٢٢، ٢٣، ٢٤.

فقد حرم الله تعالى على الأبناء أن يتزوجوا من النساء اللاتى كن أزواجاً لآبائهم وثم ذكر- سبحانه أربع طوائف من الأقارب يحرم نكاحهن:

أما الطائفة الأولى:

طائفة الأمهات من النسب ويعم هذا التحريم الجدات سواء أكن من جهة الأب أم من جهة الأم وقد أجمع المسلمون على ذلك.

والطائفة الثانية:

هى طائفة الفروع من النساء مهما تكن طبقتهن وقد انعقد الإجماع على ذلك لقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ والبنت هى كل امرأة لك عليها ولادة سواء أكانت بنتا مباشرة أم بواسطة فتشمل حرمة النكاح البنات وبنات الأبناء وبنات البنات وإن نزلن

والطائفة الثالثة:

هى طائفة فروع الأبوين وقد عبر القرآن عن ذلك بقوله ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ ثم بقوله ﴿وَبَنَاتُ الأَخ وبَنَاتُ

الأُخْتِ﴾ أى وحرم الله عليكم نكاح أخواتكم سواء أكن شقيقات أم غير شقيقات وحرم عليكم أيضاً نكاح بنات إخوانكم وبنات أخواتكم من أى وجه يكن.

والطائفة الرابعة:

هى طائفة العمات والخالات وقد ثبت تحريم نكاحهن بقوله ﴿وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ﴾ بالعطف على ﴿أُمَّهَاتُكُمْ﴾.

والعمة: هى كل امرأة شاركت أباك مهما علا في أصليه أو في أحدهما.

والخالة: هى كل امرأة شاركت أمك مهما علت في أصليها أو في أحدهما.

تلك هى الطوائف الأربع اللاتى حرم الله نكاحهن من الأقارب وإن هذا التحريم يتناسب مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها ويتفق مع العقول السليمة التى تحب مكارم الأخلاق وذلك لأن شريعة الإسلام قد نوهت بمنزلة القرابة القريبة للإنسان وأضفت عليها الكثير من ألوان الوقار والاحترام والزواج وما يصاحبه من شهوات

ومداعبات ورضا واختلاف يتنافى مع ما أسبغه الله- تعالى- على هذه القرابة القريبة من وقار ومن عواطف شريفة.

ولأن التجارب العلمية قد أثبتت أن التلاقح بين سلالات متباعدة الأصول غالباً ما ينتج نسلا قويا أما التلاقح بين السلالات المتحدة في أصولها القريبة فإنه غالبا ما ينتج نسلا ضعيفا.

ثم بين سبحانه نوعاً ثانيا من النساء يحرم الزواج بهن لأسباب أخرى سوء القرابة فقال تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمْ اللاتي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنْ الرَّضَاعَةِ﴾ والأم من الرضاع: هى كل امرأة أرضعتك وكذلك كل امرأة انتسبت إلى تلك المرضعة بالأمومة من جهة النسب أو من جهة الرضاع.

والأخت من الرضاع هى التى التقيت أنت وهى على ثدى واحد.

قال القرطبي: وهي الأخت لأب وأم وهي التي أرضعتها أمك بلبان أبيك سواء أرضعتها معك أو رضعت قبلك أو بعدك، والأخت من الأب دون الأم وهي التي أرضعتها زوجة أبيك والأخت من الأم دون الأب وهي التي أرضعتها أمك بلبان رجل آخر[1].

ولهذا ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: (إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة) وفي لفظ لمسلم (يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب).

ومن الحكم التي ذكرها العلماء من وراء تحريم النكاح بسبب الرضاعة أن المولود يتكون جسمه من جسم المرأة التي أرضعته فيكون جزءاً منها كما أنه جزء من أمه التي حملته وإذا كانت هذه قد غذته بدمها وهو في بطنها فإن تلك قد غذته بلبانها وهو في حجرها فكان من التكريم لهذه الأم من الرضاع أن تعامل معاملة الأم الحقيقية وأن

---

(١) تفسير القرطبي جـ٥ ص١١١.

يعامل كل من التقيا على ثدى امرأة واحدة معاملة الأخوة من حيث التكريم وحرمة النكاح بينهم.

ثم ذكر سبحانه نوعا ثالثا من المحرمات لغير سبب القرابة فقال (وأمهات نسائكم).

فكذلك حرم الله تعالى نكاح أمهات زوجاتكم سواء أكن أمهات مباشرات أم جدات لأن كلمة الأم تشمل الجدات ولإجماع الفقهاء على ذلك.

قال الألوسى (والمراد بالنساء المعقود عليهن على الإطلاق سواء أكن مدخولا بهن أم لا لكن يشترط أن يكون النكاح صحيحا فعن النبى ﷺ قال: «إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها دخل بالابنة أو لم يدخل وإذا تزوج الأم ولم يدخل بها ثم طلقها فإن شاء تزوج الابنة»[1].

ثم بين سبحانه نوعا رابعا من المحرمات لغير سبب القرابة فقال تعالى ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ

---

(١) تفسير الألوسى جـ٤ ص٢٥٧.

نِسَائِكُمْ اللاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

والربائب جمع ربيبة والربيبة هى بنت امرأة الرجل من غيره وسميت بذلك لأن الزوج في غالب الأحوال يربيها في حجره ويعطف عليها.

ولا يشترط أن تكون الربيبة في حجر الزوج لأن هذا الشرط خرج مخرج العادة والغالب.

قال القرطبى ما ملخصه: اتفق الفقهاء على أن الربيبة تحرم على زوج أمها إذا دخل بالأم وإن لم تكن الربيبة في حجره[1].

والحكمة في تحريم الربائب على أزواج أمهاتهن أنهن حينئذ يشبهن البنات الصليبات بالنسبة لهؤلاء الأزواج بسبب ما يجدنه منهم من رعاية وتربية في العادة ولأنه لو أبيح للرجل أن يتزوج ببنت امرأته التى دخل بها لأدى ذلك إلى تقطيع الارحام بين الأم وابنتها ولأى ذلك أيضاً

---

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص١١٢.

إلى الانصراف عن رعاية هؤلاء الربائب خشية الرغبة في الزواج بواحدة منهن.

ثم بين سبحانه نوعا خامساً من المحارم فقال- تعالى- ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾.

والحلائل جمع حليلة وهى الزوجة وسميت بذلك لحلها للزوج وحل الزوج لها فكلاهما حلال لصاحبه ويقال للزوج حليل.

قال القرطبى: أجمع العلماء على تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء وما عقد عليه الأبناء على الآباء سواء أكان مع العقد وطء أو لم يكن.

ثم بين سبحانه نوعا سادسا من المحرمات فقال- تعالى ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلا مَا قَدْ سَلَفَ﴾

وكما أنه يحرم الجمع بين الأختين في عصمة رجل واحد فكذلك يحرم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها أو ابنة أخيها أو ابنة أختها لنهى النبى ﷺ عن ذلك بقوله: «لا

تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة أختها».

وفي رواية الطبراني أنه قال (فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم)[1].

والسر في تحريم هذا النوع من النكاح أنه يؤدى إلى تقطيع الأرحام- كما جاء في الحديث الشريف- إذ من شأن الضرائر أن يكون بينهم من الكراهية وتبادل الأذى ما هو مشاهد ومعلوم فكان من رحمة الله بعباده أن حرم عليهم هذه الأنواع من الأنكحة السابقة صيانة للأسرة من التمزق والتشتت وحماية لها من الضعف والوهن وسُمُوّاً بها عن مواطن الريبة والغيرة والفساد.

ثم بين سبحانه نوعا سابعا من المحرمات فقال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ النِّسَاءِ إِلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

---

(١) تفسير الألوسى جـ٤ ص٤١٦.

والمراد بالمحصنات هنا: ذوات الأزواج من النساء فيحرم نكاحهن قبل مفارقة أزواجهن لهن لكى لا تختلط المياه فتضيع الأنساب وإلى هنا تكون هذه الآيات الثلاث قد بينت خمسة عشر نوعا من الأنكحة المحرمة.

فالآية الأولى بينت نوعا واحد والآية الثانية بينت ثلاثة عشر نوعا والآية الثالثة بينت نوعا واحدا.

قال الفخر الرازى: اعلم أنه- تعالى- نص على تحريم أربعة عشر صنفا من النساء: سبعة منهن من جهة النسب وهن:

الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت وسبعة أخرى لا من جهة النسب وهن:

الأمهات من الرضاعة والأخوات من الرضاعة وأمهات النساء والربائب بنات النساء بشرط أن يكون قد دخل بالنساء وأزواج الأبناء وأزواج الآباء والجمع بين

الأختين[1] يضاف إليهن المحصنات فيصرن جميعا خمسة عشر.

- ٩ -

وبعد أن بين- سبحانه- فيما سبق من آيات كثيراً من الأوامر والنواهي والمحرمات والمباحات وبعد أن بين للناس أنه ما شرع هذه الأحكام القويمة إلا لمصلحتهم ومنفعتهم عقب ذلك ببيان جانب من مظاهر فضله على عباده ورحمته بهم فقال تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلا عَظِيماً﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾[2].

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص٢٤.

(٢) سورة النساء آية رقم (٢٦، ٢٧، ٢٨).

فهذه الآيات الكريمة بينت ألواناً من مظاهر فضل الله على عباده ورحمته بهم لكي يزدادوا له شكرا وطاعة وخضوعا.

فهذا اليسر والتخفيف في التكاليف من أبرز مميزات الشريعة الإسلامية وقد بين القرآن الكريم ذلك في كثير من آياته ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[2].

ولقد كان من هدى النبي ﷺ التخفيف والتيسير ففي الحديث الشريف «أن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه».

وكان من وصاياه لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري عندما أرسلهما إلى اليمن «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا».

---

(١) سورة البقرة آية رقم (١٨٥).

(٢) سورة الحج آية رقم (٧٨).

ثم ساقت السورة آية كريمة فيها ما فيها من التوازن بين خصائص الرجال وخصائص النساء فنهى- سبحانه- عن التحاسد وعن تمنى ما فضل الله به بعض الناس على بعض من المال ونحوه مما يجرى فيه التنافس فقال سبحانه: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[1].

روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها ما رواه الامام أحمد والترمذى عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو ولنا نصف الميراث فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال قتادة: "كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان فما ورثوا وجعل للذكر مثل حظ الأنثيين تمنى النساء أن لو جعل أنصباؤهن كأنصباء الرجال وقال

---

(١) سورة النساء آية رقم (٣٢).

الرجال: إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضلنا عليهن في الميراث فنزلت هذه الآية.

والتمنى المنهى عنه هنا: هو الذى يتضمن معنى الطمع فيما في يد الغير والحسد له على ما أعطاه الله من مال أو جاه أو غير ذلك مما يجرى فيه التنافس بين الناس وذلك لأن التمنى بهذه الصورة يؤدى إلى شقاء النفس وفساد الخلق والدين ولأنه أشبه ما يكون بالاعتراض على قسمة الخالق العليم الخبير بأحوال خلقه وبشئون عباده.

ولا يدخل في التمنى المنهى عنه ما يسميه العلماء بالغبطة وهى أن يتمنى الرجل أن يكون له مثل ما عند غيره من خير دون أن ينقص شئ مما عند ذلك الغير.

- ١١ -

ثم بينت السورة الكريمة بعد ذلك حقوق الرجال وحقوق النساء وما يجب لكل فريق نحو الآخر وصرحت بأن للرجال القوامة على النساء وذكرت ضروب التأديب التى يملكها الرجل على زوجته وكلها من غير قسوة ولا

شذوذ ولا طغيان قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[1] والقوامة معناها القيام على شئون النساء بالحفظ والرعاية والنفقة والتأديب وغير ذلك مما تقتضيه مصلحتهن.

ثم ذكر سبحانه سببين لهذه القوامة:

أولهما: وهبي وقد بينه بقوله ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أى بسبب ما فضل الله به الرجال على النساء من قوة في الجسم وزيادة في العلم وقدرة على تحمل أعباء الحياة وتكاليفها وما يستتبع ذلك من دفاع عنهن إذا ما تعرضن لسوء.

---

(١) سورة النساء آية رقم (٣٤).

قال الفخر الرازى: واعلم أن فضل الرجال على النساء حاصل من وجوه كثيرة: بعضها صفات حقيقية وبعضها أحكام شرعية أما الصفات الحقيقية فاعلم أن الفضائل الحقيقية يرجع حاصلها إلى أمرين إلى العلم وإلى القدرة.

وإن منهم الأنبياء والعلماء وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى والجهاد والآذان والخطبة والولاية في النكاح فكل ذلك يدل على فضل الرجال على النساء[1] والمراد بالتفضيل في الآية تفضيل الجنس على الجنس لا تفضيل الآحاد على الآحاد فقد يوجد من النساء من هى أقوى عقلاً وأكثر معرفة من بعض الرجال.

وأما السبب الثانى: فهو كسبى وقد بينه الله سبحانه بقوله ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أى بسبب ما ألزم به الرجال من إنفاق على النساء ومن تقديم المهور لهن عند الزواج بهن ومن القيام برعايتهن وصيانتهن.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص٨٨.

قال الآلوسي: واستدل بالآية على أن للزوج تأديب زوجته ومنعها من الخروج وأن عليها طاعته إلا في معصية الله تعالى وفي الخبر (لو أمرت أحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)[1].

- ١٢ -

ثم دعت الآيات الكريمة أهل الخير إلى الإصلاح بين الزوجين إذا ما دب الخلاف بينهما فقال ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾[2] وبهذا التشريع الحكيم تسعد الأمم والأسر وتنال ما تصبوا إليه من رقي واستقرار.

وبعد أن فصلت السورة الكريمة الحديث عما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الزوجين وبين أفراد الأسرة انتقلت إلى بيان العلاقة بين العبد وخالقه وأنها يجب أن تقوم على

---

(١) تفسير الألوسي جـ٥ ص٢٤.

(٢) سورة النساء الآية رقم (٣٥).

إخلاص العبادة له- سبحانه- كما يجب على المسلم أن يجعل علاقته مع والديه ومع أقاربه ومع اليتامى والمساكين وغيرهم قائمة على الإحسان وعلى التعاطف والتراحم فقال تعالى ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالا فَخُورًا﴾[1].

- ١٣ -

ثم شنت السورة الكريمة حملة عنيفة على اليهود الذين كانوا يجاورون المؤمنين بالمدينة والذين كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه والذين كانوا ينطقون بالباطل ويشهدون الزور عن تعمد وإصرار وقد بينت السورة الكريمة أن حسدهم للنبى ﷺ هو الذى دفعهم إلى افتراء الكذب على الله -تعالى- وأنهم قد طردوا من رحمه الله بسبب كفرهم

(١) سورة النساء الآية رقم (٣٦).

وعنادهم وإيذائهم لمحمد ﷺ الذى يعرفون صدقه كما يعرفون أبناءهم.

فساقت السورة الكريمة لنا أكثر من عشر آيات تتحدث عن ألوان من رذائل أهل الكتاب ومن مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية وتوعدتهم بسوء المصير على ما اقترفوه من منكرات وآثام وكأن السورة الكريمة بعد أن نظمت المجتمع الإسلامى هذا التنظيم الداخلى السليم أخذت في تحذير المؤمنين من عدوهم الخارجى وأطلعتهم على ما يضمره لهم أهل الكتاب من كراهية وبغضاء.

استمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى كل ذلك فتقول:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ۞ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ۞ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا

لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلاً﴾[1].

ثم توعدت السورة الكريمة من يشرك با لله فقال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[2].

والمعنى أن ا لله لا يغفر لكافر مات على كفره ويغفر ما دون الكفر من الذنوب والمعاصى لمن يشاء أن يغفر له إذا مات من غير توبة فمن مات من المسلمين بدون توبة من الذنوب التى اقترفها فأمره مفوض إلى ا لله إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة وإن شاء عذبه ثم أدخله الجنة.

— ١٤ —

وبعد هذا الحديث الجامع عن أحوال أهل الكتاب من اليهود وجه القرآن جملة من الأوامر الحكيمة إلى المؤمنين فبين الأساس الذى يقوم عليه الحكم في الإسلام فذكر أن

---

(١) سورة النساء الآيات (٤٤، ٤٥، ٤٦).

(٢) سورة النساء آية رقم (٤٨).

العدل والأمانة هما الدعامتان الراسختان اللتان يقوم عليهما الحكم في الإسلام ووجهت إلى المؤمنين نداء أمرتهم فيه بطاعة الله وطاعة رسوله وأولى الأمر منهم كما أمرتهم أن يردوا كل تنازع يحصل بينهم إلى ما يقضي به كتاب الله وسنة رسوله لأن التحاكم إلى غيرهما لا يليق بمؤمن فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا﴾[1].

- ١٥ -

ثم انتقل القرآن بعد ذلك إلى الحديث عن المنافقين فكشف عن أحوالهم الذميمة وطباعهم القبيحة ونفوسهم المريضة وحذر المؤمنين من مكرهم وكذبهم بعد أن حذرهم

(١) سورة النساء آية رقم (٥٨، ٥٩).

قبل ذلك من مكر اليهود وأمرهم بالاعتصام بطاعة الله ورسوله وأخذت السورة توبخ المنافقين في آيات متعددة وكشفت النقاب عن حال هؤلاء المنافقين بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ وإذا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾[1].

- ١٦ -

ثم يأمر الله تعالى المؤمنين بالجهاد في سبيله وتبشرهم بأعظم البشارات وتسوق لهم أقوى ألوان التحريض على

(١) سورة النساء آية رقم (٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣).

القتال وتبين لهم أن الجهاد لا ينقص شيئا من العمر وتخبرهم أن الموت سيدرك المقدام كما يدرك الجبان فعليهم أن يكونوا من الذين يقدمون على الموت بدون جبن أو وجل ما دام الجبن لا يؤخر الحياة كما أن الإقدام لا ينقصها.

قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾[1].

فالآية الكريمة صريحة في بيان أن الموت لا مفر منه ولا مهرب عنه سواء أقاتل الإنسان أم لم يقاتل وقريب في المعنى من هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلا قَلِيلاً﴾[2].

---

(١) سورة النساء آية رقم (٧٨).

(٢) سورة الأحزاب آية رقم (١٦).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾(١).

- ١٧ -

ثم حكى سبحانه بعد ذلك جانبا من صفات المنافقين ومن على شاكلتهم من ضعاف الإيمان حتى يحذرهم المؤمنون الصادقون فقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلاً﴾(٢).

فإذاعة الأخبار بدون تثبت خصوصا في أوقات الحروب تؤدى إلى أعظم المفاسد والشرور لأنها إن كانت تتعلق بالأمن فإنها قد تحدث لونا من التراخي وعدم أخذ الحذر وإن كانت تتعلق بالخوف فإنها قد تحدث بلبلة واضطرابا في الصفوف والمجتمع الذى يكثر فيه العقلاء الفطناء هو

---

(١) سورة الجمعة آية رقم (٨).

(٢) سورة النساء آية رقم (٨٣).

الذى تقل فيه إذاعة الأخبار إلا من مصادرها الأصيلة وهو الذى يرجع أفراده في معرفة الحقائق إلى العلماء المتخصصين وهكذا نرى الأية الكريمة تغرس في نفوس المؤمنين أسمى ألوان الإخلاص لدينهم ودولتهم وقيادتهم فهى في مطلعها تنكر عليهم إذاعة الأخبار بدون تحقق من صدقها وفائدتها وفي وسطها تأمرهم بأن يرجعوا إلى حقائق دينهم وإلى الحكام العادلين والعلماء المخلصين الذين يعرفون الأمور على وجهها ليسألوهم عما يريدون معرفته وفي آخرها نذكرهم بفضل الله عليهم ورحمته بهم حتى يداوموا على طاعته ويشكروه على نعمه.

- ١٨ -

وبعد هذا الحديث الحكيم الذى بين الله تعالى فيه أحوال المنافقين وبعد ما واصلت الآيات حملها على المنافقين وبينت صفاتهم الذميمة وموقف المؤمنين ممن يخالفوهم في العقيدة أخذت السورة بعد ذلك في بيان حكم القتل الخطأ وحكم القتل العمد فقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ

مُؤْمِنًا إلا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إلا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ۞[1].

والمعنى أن المؤمن لا يسوغ له ولا يليق به أن يقتل أخاه المؤمن لأن ذلك محرم تحريما قاطعا لكن إن وقع منه القتل له على سبيل الخطأ فإن دم القتيل لا يذهب هدرا بل على من قتل أخاه المؤمن خطأ ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أى: اعتاق نفس مؤمنة وعليه كذلك ﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ أى: مؤداه إلى ورثة القتيل عوضا لهم عما فاتهم من قتيلهم وقوله ﴿إِلا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ أى إلا أن يتصدق أهل القتيل

---

(١) سورة النساء آية رقم (٩٢، ٩٣).

بهذه الدية على القاتل بأن يتنازلوا عنها له على سبيل العفو والصفح.

والدية هي: ما يعطى عوضا من دم القتيل إلى وليه وهى مأخوذة من الودى كالعدة من الوعد يقال ودى القاتل القتيل يديه دية إذا أعطى وليه المال الذى هو بدل النفس.

ثم نهت الآية الثانية المؤمن نهيا قاطعا عن أن يمد يده بالسوء لقتل نفس حرم الله قتلها إلا بالحق وتتوعد الذى يفعل ذلك بغضب الله عليه وطرده من رحمته وإلحاق العذاب العظيم به يوم القيامة.

- ١٩ -

ثم أمرت الآيات الكريمة المؤمنين بأن يجعلوا قتالهم من أجل إعلاء كلمة الله لا من أجل المغانم والأسلاب وألا يقاتلوا إلا من يقاتلهم وبشرت المجاهدين في سبيل الله بما أعده الله لهم من درجات عالية يتميزن بها عن غيرهم من القاعدين وتوعدت الذين يرضون الذلة لأنفسهم بسوء المصير وذلك لأن الحق لا تعلوا رايته في الأرض إلا إذا كان

أتباعه أقوياء يأبون الذل والخضوع لغير سلطان اللّه تعالى قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ إلا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾[1].

— ٣٠ —

ثم أمر الله- سبحانه- المؤمنين في شخص نبيهم ﷺ بأن يلتزموا الحق في كل شئونهم وأحوالهم لأن عدم التقيد بالحق والعدل يؤدى إلى ضعف الأمة واضمحلالها.

وبينت السورة الكريمة أن الله- تعالى- قد أنزل القرآن على نبيه ﷺ لكى يحكم بين الناس بالعدل الذى أراه الله إياه ونهت الأمة في شخصه ﷺ عن الخيانة والميل مع الهوى وبخت المنافقين الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله كما ونجت الذين يدافعون عنهم أو يسيرون في

(١) سورة النساء آية رقم (٩٧، ٩٨).

ركابهم وأمر الله تعالى بتحرى العدالة مع العدو مع الصديق في الآيات التى نزلت في شأن طعمة بن أبيرق، وقتادة بن النعمان، وزيد بن السمين والتى تبدأ بقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ۞ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۞ وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۞ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۞ هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾[1].

فقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها ما ذكره صاحب الكشاف أن رجلاً اسمه طعمة بن أبيرق- أحد بنى ظفر- سرق درعا من جار له اسمه قتادة بين النعمان في جراب دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق

---

(١) سورة النساء آية رقم (١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩).

فيه وخبأ طعمة الدرع عند رجل من اليهود اسمه زيد بن السمين فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وماله بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودى فأخذوها فقال اليهودى: دفعها إلى طعمة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر -أقارب طعمة-: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فلما وصلوا إليه سألوه أن يجاول- أى يدافع- عن صاحبهم طعمة وقالوا: إن لم تفعل هلك وافتضح وبرئ اليهودى فهم رسول الله ﷺ أن يفعل وأن يعاقب اليهودى وقيل هم أن يقطع يده فنزلت[1].

وهكذا نرى الآيات الكريمة تهدى الناس إلى الحق الذى لا يميل مع الهوى ولا مع العصبية ولا يتأرجح مع الحب أو البغض حتى ولو كان الذى عليه الحق ممن يظهرون الإسلام ويعاملون معاملة المسلمين وكان الذى له الحق من اليهود الذين لم يتركوا مسلكا لمحاربة الدعوة الإسلامية إلا سلكوه

---

(١) تفسير الكشاف جـ١. ص٥٦١ بتصرف يسير.

والذين يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ومع ذلك أنكروه وحاربوه فهل رأيت- أخي المسلم- عدالة تقترب من هذه العدالة في سموها ونقائها واستقامة منهجها؟

إن هذه الآيات لتشهد بأن هذا القرآن من عند الله لأن البشر مهما استقامت طبائعهم فإنهم ليس في استطاعتهم أن يصلوا إلى هذا المستوى الرفيع الذى تشير إليه الآيات الكريمة.

- ٣١ -

ثم بينت السورة الكريمة أن الله تعالى لا تنفع عنده الأماني والأنساب وإنما الذى ينفع عنده هو الإيمان والعمل الصالح فقال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[1].

---

(١) سورة النساء آية رقم (١٢٣، ١٢٤).

والمعنى: ليس ما وعد الله به من الثواب أو إدخال الجنة أو ليس ما تحاورتم فيه حاصلا بمجرد أمانيكم- أيها المسلمون- أو أماني أهل الكتاب أو غيرهم وإنما ما تمنيتموه جميعا يحصل بالإيمان الصادق وبالعمل الصالح وبالسعي والجد في طاعة الله فقد اقتضيت سنة الله -تعالى- أن من يعمل خيراً يجد خيراً ومن يعمل سوءاً يجز به أي: من يرتكب معصية مؤمنا كان أو كافرا يجازه الله بها عاجلا أو آجلا الا إذا تاب أو تفضل الله عليه بالمغفرة إذا كان مؤمنا وقد سار ابن كثير في تفسيره على أن الخطاب لجميع الطوائف فقال (والمعنى في هذه الآية أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال وليس كل من أدعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه ولا كل من قال إنه على الحق سمع قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من الله برهان[1].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٥٧.

ثم عادت السورة الكريمة إلى تحذير المؤمنين من أعدائهم ومن المنافقين فكشفت لهم عن طبيعتهم ونهتهم عن العقود معهم وبينت لهم أنماطا من خداعهم وألوانا من أخلاقهم الذميمة وأخبرتهم عن سوء مصير أولئك المنافقين والمتمادين في الغى والضلال.

استمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى ذلك بأسلوبها الحكيم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلاً مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾[1].

فأدق وصف لهؤلاء المنافقين أنهم مذبذبين والمذبذب: المهتز القلق الذى لا يثبت ولا يتمهل فهؤلاء المنافقون

---

(١) سورة النساء آية رقم (١٤٢، ١٤٣).

مترددون بين المؤمنين والمشركين لا مخلصين للإيمان ولا مصرحين بالكفر[1].

وفي صحيح مسلم من حديث ابن عمر عن النبى ﷺ «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين- أى المترددة بين قطيعين- تعير إلى هذه مرة وإلى هذه أخرى».

- ٣٣ -

ثم حكى سبحانه جانباً من الأسئلة المتعنتة التى كان اليهود يوجهونها إلى النبى ﷺ ومن النعم التى أنعم - سبحانه- بها عليهم ومن المنكرات التى قالوها وفعلوها ومن العقوبات التى عاقبهم بها بسبب ظلمهم وقسوقهم استمع إلى القرآن وهو يحكى كل ذلك فيقول ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ورفعنا

(١) تفسير القرطبى جـ٥ ص٤٢٤.

فَوْقَهُمْ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمْ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا ۝[1].

والمعنى: يسألك اليهود يا محمد على سبيل التعنت والعناد أن تنزل عليهم كتابا من السماء مكتوبا جملة كما جاء موسى لآبائهم بالتوراة مكتوبة في الألواح جملة فلا تستكبر ما سألوك فقد سألوا موسى أكبر من ذلك أى أن حاضر هؤلاء اليهود الذين يعيشون معك يا محمد كماضي في آبائهم الأقدمين وأخلاق الأبناء صورة من أخلاق الآباء وجميعهم لا يبغون من سؤالهم الاهتداء إلى الحق وإنما يبغون إعنات الرسل- عليهم الصلاة والسلام- والإساءة إليهم هذا والمتأمل في هذه الآيات الكريمة يراها من أجمع الآيات

(١) سورة النساء الآيات رقم (١٥٣، ١٥٤، ١٥٥).

التى تحدثت عن أحوال اليهود وعن أخلاقهم السيئة وعن فنون من رذائلهم وقبائحهم.

- ٢٤ -

وبعد هذا الحديث المستفيض عن شبهات اليهود وسوء طباعهم ساق -سبحانه- ما يشهد بصدق النبى ﷺ في دعوته وأنه ليس بدعا من الرسل بل هو واحد منهم إلا أنه خاتمهم وأرفعهم منزله عند الله -تعالى- فتحدثت السورة الكريمة عن وحدة الرسالة الإلهية وبينت أن الله -تعالى- قد أوحى إلى نبيه محمد ﷺ كما أوحى إلى النبيين من قبله وأن حكمته تعالى قد اقتضت أن يرسل رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ وَرُسُلا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى

تَكْلِيمًا ۞ رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِأَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1].

قال ابن كثير: وقد اختلف في عدة الأنبياء والمرسلين والمشهور في ذلك حديث أبى ذر قال: قلت يا رسول ا لله: كم عدد الأنبياء؟ «قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا قلت يا رسول ا لله: كم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر»[2].

وقال الألوسى: فالآية ظاهرة في أنه لا بد من الشرع وإرسال الرسل وأن العقل لا يفنى عن ذلك.

هذا وللمرحوم الإمام محمد عبده كلام نفيس في كتابه (رسالة التوحيد) عن حاجة البشر إلى إرسال الرسل وعن وظيفتهم عليهم الصلاة والسلام- ومما قاله في ذلك:

* الرسل يرشدون العقل إلى معرفة ا لله وما يجب أن يعرف من صفاته ويبينون الحد الذى يجب أن يقف عنده في

---

(١) سورة النساء الآيات رقم (١٦٣، ١٦٤، ١٦٥).

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٨٦.

طلب ذلك العرفان على وجه لا يشق عليه الاطمئنان إليه ولا يرفع ثقته بما أتاه الله من القوة.

* الرسل يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم وتنازعته مصالحهم ولذاتهم فيفصلون في تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة ولا يفوت به المصالح الخاصة.

* الرسل يضعون لهم بأمر الله حدوداً عامة يسهل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم كاحترام الدماء البشرية إلا بحق مع بيان الحق الذى تهدر له وحظر تناول شئ مما كسبه الغير إلا بحق مع بيان الحق الذى يباح تناوله واحترام الأعراض مع بيان ما يباح وما يحرم من الأبضاع.

* يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية إلى طلب الرغائب السامية آخذين في ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب والإنذار والتبشير حسبما أمرهم الله- جل شأنه.

* يفصلون في جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم وما يعرضهم لسخطه عليهم ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده وأخذ بأوامره.

* وبهذا تطمئن النفوس وتثلج الصدور ويعتصم المرء بالصبر انتظارا لجزيل الأجر أو إرضاء لمن بيده الأمر وبهذا ينحل أعظم مشكل في الاجتماع الإنسانى لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم في حله إلى اليوم[1].

- ٣٥ -

ومن هذا العرض نرى أن سورة النساء- كما يقول بعض العلماء- (قد عالجت أحوال المسلمين فيما يتعلق بتنظيم شئونهم الداخلية عن طريق إصلاح الأسرة وإصلاح المال في ظل تشريع قوى عادل مبنى على مراعاة مقتضيات الطبيعة الإنسانية مجرد عن تحكيم الأهواء والشهوات.

---

(١) رسالة التوحيد للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ص١١٧ وما بعدها.

وذلك إنما يكون إذا كان صادرا عن حكيم خبير بنزعات النفوس واتجاهاتها وميولها كما عالجت أحوالهم فيما يختص بحفظ كيانهم الخارجي عن طريق التشريعات والتوجيهات التي اشتملت عليها السورة الكريمة والتي من شأنها أن تحفظ للأمة كيانها وشخصيتها متى تمسكت بها وأن تجعلها قادرة على دفع الشر الذي يطرأ عليها من أعدائها.

بل إن السورة الكريمة لم تقف عند حد التنبيه على عناصر المقاومة المادية وإنما نبهت على ما يجب أن تحفظ به عقيدة الأمة ومبادئها من التأثر بما يلقى في شأنها من الشكوك والشبه وفي هذا إيحاء يجب على المسلمين أن يلتفتوا إليه وهو أن يحتفظوا بمبادئهم كما يحتفظون بأوطانهم وأن يحصنوا أنفسهم من شر حرب أشد خطرا وأبعد في النفوس أثرا من حرب السلاح المادي: تلك هي حرب التحويل من مبدأ إلى مبدأ ومن دين إلى دين ومع البقاء في الأوطان والإقامة في الديار والأموال.

ألا وإن شخصية الأمة ليتطلب بقاؤها الاحتفاظ بالجانبين: جانب الوطن والسلطان وجانب العقيدة والإيمان، وعلى هذا درج سلفنا الصالح فعاشوا في أوطانهم آمنين وبمبادئهم وعقائدهم متمسكين[1].

تلك هى سورة النساء التى رسمت أعظم المناهج في بناء المجتمع الفاضل المتكامل ونظمته تنظيماً دقيقاً حكيماً نظمته فيما يتعلق بأوضاعه الداخلية ونظمته فيما يتعلق بأوضاعه الخارجية.

* أما فيما يتعلق بأوضاعه الداخلية فقد رأينا كيف ساقت العقائد والعبادات والتشريعات والآداب التى تُكَوِّن مجتمعا فاضلا.

يعرف الفرد فيه واجبه نحو خالقه ونحو نفسه ونحو غيره مجتمعاً تقوم الأسرة فيه على دعائم ثابتة من الأمان والاطمئنان والمحبة والمودة والوئام مجتمعا رجاله يكرمون

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص١٧٧، ص٢٦٦- بتصرف وتلخيص- لفضيله الأستاذ الشيخ محمود شلتوت- رحمه الله.

نساءه، ونساؤه يحترمهن رجاله، ويؤدين ما عليهن نحوهم من حقوق بأدب وعفاف.

مجتمعا حكامه يحكمون بالعدل ويراقبون خالقهم في أقوالهم وأفعالهم والمحكومون فيه يطيعون حكامهم في غير معصية الله مجتمعا يرى افراده أن خيراته وأمواله هي أمانة في أعناقهم جميعا وأن ثمارها ومنافعها ستعود عليهم جميعا لذا فهم يحرصون على استغلال ما يملكونه منها فيما يرضى الله وفيما يعود عليهم وعلى أمتهم بالخير والصلاح والاستغناء والفلاح.

* وأما فيما يتعلق بأوضاعه الخارجية فقد رأينا- أيضا- فيما سبق كيف كشفت النقاب عن رذائل المنافقين وعن العقائد الفاسدة التي يتشبث بها أهل الكتاب وعن المسالك الخبيثة والوسائل المتعددة التي اتبعها هؤلاء جميعا لكيد الدعوة الإسلامية والإساءة إلى النبي ﷺ.

كما رأينا كيف أنها قد حذرت المؤمنين من شرور أعدائهم وبصرتهم بما يجب عليهم نحوهم وبما يجعلهم دائما

على أتم استعداد لمقاومتهم ولتأديبهم ولرد كيدهم في نحورهم.

لقد ساقت السورة الكريمة من الآيات التى ترغب في الجهاد في سبيل الله ما يجعل المؤمنين يقبلون عليه بقلوب منشرحة وبعزائم ثابتة وبأرواح غايتها الشهادة في سبيل اللّه.

* وباتباع المسلمين السابقين لهذا التوجيه الحكيم الذى اشتملت عليه هذه السورة الكريمة نالوا ما نالوا من مجد وسؤدد وظفرا بما ظفروا به من عزة وسعادة وأصابوا ما أصابوا من خير وفلاح.

طبع بمطبعة مركز صالح كامل
للاقتصاد الإسلامي – جامعة الأزهر بمدينة نصر
☎ : ٢٦١٠٣٠٨

رقم الإيداع: ٩٨/١٤٧٥٢
الترقيم الدولي: I.S.B.N.
977-5252-27-X